العلم والفلسفة

« الفلسفة » إحدى الكلمات الغامضات التي لا يجني الباحث فائدة تذكر من محاولة ضغطها في حدود تعريفٍ عام . والتفلسف هو السبيل الوحيد للوصول الى معنىً حقيقي للفلسفة . ولما كان الناس على مذاهب شتى في طريقة تفلسفهم ، فلاغرابة إذا قرأنا آراء مختلفة حول موضوعها ، ولا عجب اذا اختلف الناس حول قيمتها الانسانية . والخير كل الخير في ترك مسألة تعريفها تتشكل في ذهن كل فردٍ كلما تقدّم في الدرس والاطلاع ، وتعمق في بحر الفلسفة المتسع الأطراف السحيق الغور . غير أن هناك بعض الملاحظات العامة التي يجب ذكرها للتفرقة بين الفلسفة وبين ثمرة عظيمة أخرى من ثمار العقل البشريّ ، وأعني بها « العلم » .

***

لم تكن الفلسفة والعلم على وفاقٍ تام دائماً . فالعلماء بنوعٍ خاص يستخفون بالفلسفة ، لأنهم عند ما يقارنونها بالعلم ، يظنون أنها حدسٌ محض ، وتخمين صرف ، وأنها لا ترتكن إلى أسس ثابتة وحقائق واقعة كالعلم ، ولا يصل الباحث اليها عن طريق أشياء ملموسة حقيقية ، رهينةٌ نتائجها بالاثبات العملي . ويبدو أن هذا الشعور العدائي بين العلم والفلسفة ، لم يكن متسلطاً في أي وقت مضى كما هو الآن ، ولم يجد سنداً قويّاً وتعضيداً كبيراً إلاّ حديثاً ، وهذا العداء يعدّ تعرضاً للعلاقة التاريخية الطيبة بين المشكلتين العلمية والفلسفية .

والواقع أنا لا نستطيع أن نفرّق تماماً بين الفلسفة والعلم وسواء أطلقنا على « طاليس »

Thales ومن خلفوه لقب « فلاسفة » أو « علماء » فاننا لا نخطىء كثيراً . والقارىء مخير في إطلاق أي اللقبين عليهم كيفما شاء ميله . وقد كان تقدم الفلسفة والعلم وتطورهما منذ عصر طاليس الى اليوم ، متضافراً ومتحداً لدرجة لا يمكن معها فهم إحداهما تاماً دون الأخرى . ومعظم العصور الفلسفية العظيمة ، التي كانت أوفر محصولاً فكريًا وإنتاجاً ثقافيًا من سواها ، استمدّت قوتها من المكتشفات الحديثة عن طبيعة العالم ، وهي التي يعدّ العلم المسؤول الأول عن كشفها . وقد يتخذ البعض هذه ذريعة لتعزيز مقام العلم ضد الفلسفة ، والقول بأن الفلسفة طفيليّة محضة ، تتخذ النتائج العلمية لغرض التضليل بخيالات وهمية غير جائزة ولا مشروعة . ولكن مهلاً ، فان في هذا إهمالاً لنواحٍ كبيرة الشأن ، وتغاضيًا عن نواحٍ مهمة في الحالة الواقعية الراهنة . فبينما نرى ان الكثير من الأعمال العلمية القيمة هي دون شكٍّ من النوع الواقعي الصرف ، ولا تحاول أن تذهب الى ما وراء الوصف بينما نرى هذا ، نرى أيضاً أن كبار العلماء لا يكتفون بهذا ، ولا يقفون عند هذا الحد . وهم في هذا كالفلاسفة ، يريدون أن يفسروا نتائج أبحاثهم متبعين طريقتهم هم ، وهم لا يعدّدون الوسائل التصورية التي شكلتها الفلسفات الماضية فحسب، بل يعملون في كثير من الأحيان على تطبيق النتائج التي يصلون اليها على العالم ، بطريقة لا تختلف كثيراً عن طريقة الفلاسفة ، تلك الطريقة التي يوجه اللوم والنقد اليوم بشأنها .

***

واشيداً بصفة يشترك فيها العلم والفلسفة معاً ، وهي أنهما ينتجان عن رغبة ذهنية نزيهة في المعرفة للمعرفة ذاتها ، دون عناية بالنتائج المباشرة ، أو مراعاة لجائزة أو ثواب من ورائها . فالفيلسوف والعالم ، كلٌّ منهما يبحث عن الحقائق ويريد معرفة كنهها حتى يشبع رغبته الفكرية ، ويغذي عقله الجائع . الفيلسوف يبحث عن الحقيقة التي يعتقد أنها حق ، دون اعتبار للآراء المختلفة أو النظريات السائدة ، غير أن بعض الفلاسفة لم يتمكنوا من التخلص من القيود التي فرضتها عليهم بيئتهم ، واضطرّ البعض منهم الى تغيير اتجاه تفكيره في هذا التيار أو ذاك تبعاً للاتجاه السائد ولكن الفلسفة السامية ، على أي حال ، هي مسألة ذاتية

محضة ، أي أن الفرد يفكر بعقله هو ، ويتخلص من تفكيره بنظرياته هو ، فيقال مثلا إن هذه فلسفة ديكارتية أو أفلاطونية أو رواقية ، نسبةً الى ديكارت ، وأفلاطون ، والمدرسة الرواقية . وكذلك العالم يبحث عن الحقيقة بكل جوارحه ، ولكنه يسلك طريقاً مخالفاً لطريق الفيلسوف ، وينهج نهجاً آخر .

والفارق الأول بين الفلسفة والعلم ، هو فارقٌ نسبيٌّ لا يمكن تحديده تحديداً ظاهراً ، ويمكننا القول أن الرجل يصبح عالماً حينما يحاول تطبيق القوانين الواقعية ، التي تفسر الحقائق والأوضاع ، على العالم . ويدخل الرجل حدود الفلسفة حالما يأخذ على عاتقه مهمة وضع آراء ونظريات عامة حول طبيعة العالم القصوى ، في جوهرها وكليتها .

والأخيرة تمثل مشكلة الفلسفة الأساسية ، وقد صاغها اليونانيون في قوالب كثيرة منها : ما هي الأشياء الحقيقية ؟ وحينما يسأل الفردُ نفسه هذا السؤال ، ويحاول الإجابة عنه ، يصبح فيلسوفاً . ولأنّ السؤال يفرض نفسه فرضاً واضحاً على عقل كل فرد يفكر تفكيراً نزيهاً في العالم ، يصعب من الناحية التاريخيّة الفصل بين العلم والفلسفة ، غير أننا نستطيع هنا أن نرسم حدوداً تقريبية تفرّق بينهما . فإذا أراد شخصٌ معرفة العلاقات الفراغية وغيرها ، أو العلاقات الرقمية ، فإنه يصبحُ عالماً أو رياضيًّا . ولكنه إذا سأل نفسه : « ما هو الفراغ ؟ » أو « ما هو الرقم ؟ » ، أصبح فيلسوفاً . وإذا أنكر شخصٌ وجود أي شيء يستحق أن يُسمّى « حقيقة » فإنه يكون قد أصبح فيلسوفاً .

***

والفرق الثاني بين العلم والفلسفة هو أن الطريق العلميّ عمليٌّ الأساس ، إذ تطبق نظرياته عمليًّا على أشياء ملموسة . أما الفلسفة ، فإن طرقها ليست عمليّة . ويهتمّ الفيلسوف عادة بالنظريات والآراء ، وليس بالحقائق والوقائع . فالجزء الأكبر من مهمته يتعلق بقدرته على التحليل المنطقيّ ، وحينما نجد رجالا يهتمون اهتماماً كبيراً بتحليل النظريات تحليلا منطقيًّا ونقد الآراء بالأسلوب ذاته فإننا نكون مصيبين حينما نسمّيهم فلاسفة . أما العلماء ، فإنهم

يقولون مثلاً إن الهواء الجوي خليط من الأكسجين والأزوت . وهذا الكلام ليس من تصورات عقولهم أو بديع منطقهم ؛ بل هو مما أثبتته التجارب وأيدته الحوادث ، ويمكن لأجهل الجاهلين أن يرى بعينيه بعد تجربة عملية بسيطة ، أن كلامهم صادق ، وادعاءاتهم في محلها .

***

أما الصفة الثالثة للمشكلة الفلسفية فهي صفة أضيق نوعاً وأكثر تحديداً . العالِم كالرجل العادي ، يسلّم بأن لنا كمية محدودة من المعرفة ، ويحاول جهد استطاعته جعل هذه المعرفة أقرب ما يكون إلى التام حتى يمكن الاعتماد عليها . أما الفيلسوف ، فانه لا يسلّم بهذا وبرهان ما يشغل فكره ، ويقلّب ثنايا عقله ، لكي يتثبت من صدق هذا الادعاء أو بطلانه . قبل أن يحكم على شيء بأنه حقيقي أم لا ، يجب أن يمرره في مُرَشِّح عقله أولاً ويختبر الطرق التي بها تصير الحقيقة معروفة له كإنسان . لذلك كانت نظرية المعرفة منذ البدء ، عظيمة الشأن للفيلسوف . وإذا رأينا أنظار الناس معقودة على « المعرفة » أدركنا أننا في ميدان الفلسفة وليس العلم .

***

وثمة مشكلة أخيرة تتعلق بالفلسفة ، وهي أعظمها شأناً . وهنا يصبح الفيلسوف على اتصال وثيق برغبات الناس وميولهم عامة . فكما أن عمل العلوم الطبيعية قد يكون معرفة الحقائق التي يهتم علم الطبيعة بها ، كذلك ميول الناس الاجتماعية والنفسية فانها قد تتخذ شكلاً عالمياً وبدلاً من أن يسألوا عن طبيعة الكائن Being ، يسألون عن طبيعة الخير Good والخيرُ نفسه قد يكون نوعاً من الحقائق . وهنا تكون الفلسفة قد انتقلت إلى ما جرينا على تسميته « فلسفة الحياة » . وهذا يعني أننا قد اتخذنا ، مرة أخرى ، النظرة الذهنية المميزة الناقدة ، بدلاً من الاكتفاء بأنواع معينة من الخير كما يعرفها العامة .

والخير هو الغاية العظمى التي عليها قامت معظم الفلسفات العظيمة السامية ، وهي غاية لو تحققت ، لأعطتنا حلول المعضلات التي من أجلها قامت الفلسفة .

وديع فلسطين